

أمثال القرآن

[342] (أَلَا إِنَّ الدِّينَ خَالِصٌ وَاللَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّرَ بِؤُنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بِدِينِهِمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ). كما جاء ما يلي في الآية 18 من سورة يونس: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ). وفقاً لما ورد في هاتين الآيتين فإنهم ما كانوا يعدون الأصنام خالقين، بل كانوا يعتقدون بخالقية الله تعالى، لكنهم كانوا يولونها قداسة خاصة ويعتبرونها شافعة وواسطة جيدة بينهم وبين ربهم، فهي تشفع لهم. هذا شأن غالب المشركين، لكن بعضاً قليلاً منهم كانوا يعدون الأصنام خالقين، أممّا الأغلب فما كانوا يحملون هذه العقيدة، وكانوا يعبدونها لأجل أن تقرّ بهم إلى الله خالقهم، فيطلبون منها السعادة والسلامة والسعة والبركة وما شابه ذلك، وبذلك نسوا الله تدريجياً لتصبح الأصنام المعبود المستقل والمناجى الأصيل.

سؤال: البيانات المتقدّمة أوضحت مدى تعقّد عمل المشركين، لكن يبقى سؤال وهو: كيف يمكن للإنسان العاقل أن يسجد لشيء صنعه بيده ويعتبره واسطة ينال به من فيض الله، ويعتبره مقدّساً إلى درجة قد يضحي لأجله إنساناً آخر. الجواب: لم تكن أصالة للأصنام في الأيام الأولى من بداية عبادتها، أي بداية الانحراف الكبير، فقد كانت عندهم نموذجاً للمقدسات. على سبيل المثال لو جاء نبي أو وصي إلى بلدة عُددٍ عندهم واسطة بينهم وبين الله تعالى وحضي باحترام خاص، باعتبار هذه العلاقة، وعندما يتوفاه الله يُمنع له نصب تذكاري لكي يستمر التقديس والاحترام، لكن هذه العلاقة المفروضة تُتناسى بمرور الزمان بحيث يتّخذ النصب ذاته طابعاً مقدساً، ولا يتداعى في أذهان الناس العلاقة الأولى لصاحب النصب وخالقه، بل يصبح النصب بذاته وعلى نحو الاستقلال مقدساً فيُعبد. وهذا هو حال الانصاب والتماثيل التي تُمنع لغرض الإشارة إلى مصادر البركة والنور من الشمس والقمر وما شابه، فإنها تُعبد تدريجياً وبعد مرور زمن. ومن هذا القبيل كذلك أن يؤتى بحجر من مكان مقدس مثل الكعبة فتوضع في مكان لكي يتذكّر الحاج سفره الروحاني إلى بيت الله متى ما انتبه إلى الحجر، لكن بعد فترة من الزمن تُنسى هذه العلاقة ليصبح الحجر بعد رده صمماً ومعبوداً بحد ذاته.